ادبار دمشق وبرّها : ٢ بقلم حبيب زيات

دير بشر

بين حجيرة وصبينة الشرقية

مما يزيد في غموض تاريخ الاديار والمعابد النصرانية في الاسلام ضياع كل خبر عنها قبل الفتح ، وفقدان كثير من اسمائها الرومية او السريانية ، فلا يُدرى من احتلها من الرهبان ورجال الدين قديماً ، وهل كانت في الحقيقة منازل للزهاد والنساك ام بِيَعاً من بِيَع القرى التي كانت منتشرة في الغوطة وبر دمشق ، واستولى عليها العرب عنوة وقهراً . ولذلك لم تدخل في عهد الصلح الذي رُوي لنا بغير لفظه الاصلي ، وسُردت فيه اسماء الكنائس بمواقعها الاسلامية في الدروب والمحالّ العربية ، دون اقلّ اشارة الى ألقابها ونسبها القديمة ، كما عُدّدت لا شك في نسخة عهد خالد بن الوليد الذي كتبه للنصارى حينما كانت خطط دمشق واحياؤها لا تعرف الا باسمائها الاعجمية كالفسقار والفورتق والجينيق واشباهها ، مما فاتنا معرفته وزاد في جهلنا ماضي التاريخ البلدي حتى اصبح البحث فيه بحثاً في الطلاسم والرُّقى.

ونحن على يقين انه لو كان نقل لنا بعض اسماء الاعمار والمعابد المسيحية ، كما كانت في ايام البيزنطيين ، لتيسّر لنا الاهتداء الى جانب من اخبارها واسماء رجالها باستقراء تواقيع الوفود والنواب في ذيول المجامع التي روى لنا كتبة السريان نُبذاً من انبائها واوصافها ، والمحوا الى ما كان منها في الشام في بعض مخطوطاتهم ، التي كانت محفوظة في دير صيدنايا قبل ان يحرقها الروم اليونان غباوةً وتعصباً لكونها بالسريانية ، او كانت في جملة مصاحف دير مار جرجس في بلودان من ضاحية دمشق التي عبث بها الدهر وبدّدتها يد المصائب والغارات .

وقد سبق القول ان بشراً المنسوب له الدير هو بشر بن مروان بن الحكم

الاموي ، أضيف الدير اليه إمّا لاستحواذه عليه وهو ابن الخليفة ، او لجواره ارضاً له ما لبث ان دخل فيها الدير ونُسب اليه ، ونشأ منها ومن بقعته قرية اشتهرت باسم الدير ككثير من البقاع في الشام التي اطافت بالاديار ، كدير مران ، ودير حنينا ، ودير سمعان في حمص وممرة النعمان واذا صح استيلاء الامير بشر في اوائل الدولة المروانية على الدير اتضح لنا سبب سكوت الرواة والشعراء عن ذكره ، وهو في باطن الغوطة بعيد عن مزار السابلة ، خالٍ من الحانات ودور الضيافة التي كانت تألفها المارّة وعشاق الحور النصرانية

واوحد من اشار الى دير بشر ياقوت الرومي ، واقتصر على القول انه كان بالقرب من حجيرة من قرى الغوطة دون زيادة في التحديد والوصف ، ولا يزال اسمه باقياً الى اليوم في جوار قرية سبينة الشرقية المعروفة . وقد وُفق الاستاذ صلاح الدين المنجد الى الحصول على حجة وقف للشيخ سيف الدين الرُجيبي بن سابق ورد فيها ذكر دير بشر وحدوده وبقعته والنهر المعروف به نشرها بكاملها في مجلة « المشرق » (٤٢ [١٩٤٨] ٣٤٨—٣٥٢) ويؤخذ من المخطط الذي رسمه ان دير بشر كان في شرق قرية سبينة الشرقية وغرب قرية حجيرة .

٣

دير بطرس ودير بولس

في نواحي بني حنيفة في الغوطة

ذكرهما ياقوت في « معجم البلدان » والبكري في « معجم ما استعجم » ونقل كلاهما عن ابي الفرج الاصبهاني دون زيادة . وهذا نص ما كتبه ابو الفرج قال : « هذان الديران بظاهر دمشق بنواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة والموضع حسن عجيب كثير البساتين والاشجار والمياه قال جرير :

اذا تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وضرب بالنواقيس
فقلت للركب اذ جدّ الرحيل بنا يا بُعدَ يبرينَ من باب الفراديس

وفيها ايضاً يقول يرثي ابنه :

اودى سوادة يبدي مقلتي لجم بار يضرمر فوق المركب العاب
الا تكن ان بالديرين باكية فرب باكية بالرمل مسوال
قالوا نصيبك من اجر بلغت لهم كيف القرار وقد فارقت اشباني[1]

يريد بالرمل رمل يبرين الذي استبعده في البيتين السابقين ولا شك ان اسم « الديرين » كان قد أطلق على البقعة التي كانت تجاورهما كما اطلق اسم دير مران ودير حنيا على ما حولها من المنازل والجواسق والساتين .

وقد امعانا البحث لنعلم اين كانت ناحية بني حنيفة في الغوطة . فلم نجد من اشار اليها . ولو كانت سلمت لنا كتب الديارات للخالديين ، وهشام الكلبي ، والسري الرفاء ، والصيداطي ، ومحمد بن رمضان النحوي ، لربما كنا نجد في احدها اشارة الى ناحية بني حنيفة او تحديداً لها ويؤخذ من بيتي جرير ان الناحية المذكورة كانت غير بعيدة عن باب الفراديس ، وكان فيما يظهر بائتاً فيها حين أرّقه ضرب نواقيس الديرين لصلاة الرهبان في السحر فتذكر مسافة ما بين منزله فيها وبيرين وجهة ركبه الراحل فقال : « يا بُعدَ يبرينَ من باب الفراديس » . ومن ثمَّ لا بد من تطلب هذين الديرين في ظاهر باب الفراديس ، لا في ظاهر الباب الشرقي كما فعل دوسو ، حين تناسى دير بطرس منهما واقبل يتفقد دير بولس في موضع الدير الذي اشار اليه انطون دي بلياقانس في القرن السادس للميلاد على بعد ميلين من الباب المذكور في المكان الذي روت التقاليد ان المسيح ظهر فيه لبولس في طريق سيره الى دمشق[2] . وقد نصّ جرير وابو الفرج الاصبهاني على تجاور الديرين ، فلا سبيل الى اطراح احدهما وارتياد دير مار بولس وحده ، ولا سيما وقد شهد بعض الزوّار ان المعبد الذي كان على اسمه هنالك كان كنيسة لا ديراً .

ومما يؤيد كون الديرين في ناحية باب الفراديس ان ابن حمدون حين صحب الخليفة العباسي المتوكل على الله وزار مدينة دمشق سنة ٢٤٤ / ٨٥٨ قال : « فعنَّ للمتوكل ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس فنزلنا

(١) معجم البلدان ٢ : ٦٨٣ - ٦٨٤ ؛ ومعجم ما استعجم ٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٢) R. Dussaud, *Topographie Historique de la Syrie...*, p. 297

منزلا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة.» ولا شك ان ديري بطرس وبولس كانا وقتئذ في جملة الديارات التي استقراها المتوكل وشاهد ما فيها من عجائب الصور واحداث الرهبان وبنات القسيسين[1].

وروى ابن قتيبة ان المراد «بالديرين» في قول جرير «دير صليبا» وانما ذكره بلفظ التثنية لضرورة الوزن كعادة الشعراء كثيرًا في تثنية الاعلام في اشعارهم[2]. وقد تتبعنا هذه التثنية في اقوالهم فوجدنا منها شواهد كثيرة ومن ادلها على ذلك قول ابي نواس:

ما عدت بالماء حتى رأيتها مع الشمس في عيني أباغ تدور

وحكي عن ابي نواس انه قال: جهدتُ ان تقع في الشعر عين أباغ فامتنعت علي فقلت عيني اباغ ليستوي الشعر[3]. وكان جرير مولعاً بمثل هذه التثنية ليستقيم له الوزن كقوله:

فلا يغرنّ المروتين ولا الصفا ولا مسجد الله الحرام المطهرا (٤

وانما هي المروة لجبل بمكة ونظير ذلك قوله في جبل عماية:

لو ان عُمم عمايتين ويذبل سمعت حديثك انزلا الاوعالا (٥

ولكنه في ابياته في باب الفراديس ثنّى الديرين، لانه كان هنالك اثنان حقاً دير مار بطرس ودير مار بولس، ولعلّ احدهما كان للرهبان والثاني للراهبات، وهو ما ينفي قول ابن قتيبة. وقد فاته ايضاً ان دير صليبا كان يشتمل في الواقع على ديرين للرجال والنساء. كما نبّه على ذلك ابن شداد في كتابه «الاعلاق الخطيرة» فتفسير ابن قتيبة التثنية بضرورة الشعر خطأ على كل حال.

---

١) الخزانة الشرقية ٢ : ١٤

٢) الشعر والشعراء، طبعة ليدن، ٢٠٠

٣) معجم البلدان، طبعة اوربة، ٣ : ٧٥٧

٤) معجم البلدان، طبعة اوربة، ٤ : ٥١٢

٥) معجم البلدان، طبعة اوربة، ٣ : ٧٢١

٤

دير بولس في سكّا

سكّا من قرى قضاء دومة اليوم ، بالقرب من الغـوطة في الشمال الشرقي منها ، تبعد عن دمشق ١٧ كيلومتراً . ذكرها ياقوت في قرى الغوطة وقال : بينها وبين دمشق اربعة اميال ، وروى قول حسّان بن ثابت فيها وفي بلاس وداريا :

إن الدار اقفرت غسان بين شاطي اليرموك فسكّان(١
والقريّات من بلاس وداريّا فسكّا فاعمور الدولاب

وعنده ان اصل الاسم بالتشديد والمدّ اي سكّاء كأنهـا موزنة الأسك اي الاصم ولا يخفى ما في هذا القول من التحكم والادعاء الباطل في ردّ كل اسم اعجمي الى مفدن عربي ، واستشهد على المدّ بقول الراعي يصف ابلاً له :

فلا ردّها ربي الى مرج راهط ولا برحت تغني بسكّاء في وعل(٢

وانما مدّها الراعي لضرورة الوزن ولهذا المدّ اشباه ونظائر في الشعر .

ومما ينفي كل ظنّ وتمثل في عربية سكّا اكتشاف قبريّات فيها يونانية من القرن الثالث للميلاد اي قبل مجيء العرب بنيف وثلاثة قرون(٣) . وكانت من منازل الغسانيين لا شك كداريا وبلاس ولذلك جمعها حسّان بن ثابت في مديحه لجبلة بن الأيهم(٤) . ولما قتل ابن بيهس في الخلافة العباسية القاسم بن ابي الصيطر من ذرّية خالد بن يزيد بن معاوية نصب رأسه على باب سكّا وحوله اعلاماً سوداً وقال :

---

١) في الاصل «شاطي اليرموك فالصان» قال « الصان فيما احسب من نواحي الشام بظاهر البلقاء (معجم البلدان ٣ : ٤١٧) وهو وهم منه دعاه الى هذا الحسبان . والصواب « الحسان » وهو كما قال في موضعه « من نواحي البثنية من ارض الشام» (٢ : ٤٦٩)

٢) معجم البلدان ٣ : ١٠٥

٣) Waddinghton 2362 a. b.

٤) ديوانه ، طبعة ليدن ، ٥٥

سقتني من امية باقيات على الايام من بيض الوقائع
ولستني وقيمة يوم سكا وما اعطيته يوم الصوامع(١)

ويؤخذ من مخطوط سرياني في خزانة بريتيش موزيوم رقم add. 14602 انه كان في سكا دير قديم للبياقبة يعرف بدير مار يولس ورئيسه الراهب يوحنا وقع عنه الراهب اسطفان من دير مار سلمون ، في جملة الموقعين من اساقفة فيذقية لبنان وحوران في جوابهم على رسالة اخبار الكنيسة اليعقوبية سنة ٥٦٩؛ وفي فهرست المخطوطات السريانية اسماؤهم بالتفصيل(٢). ولعل دير مار سلمون هو « دير سلمان » القرية المعروفة اليوم في قضاء دومة .

ولم نقف في الآثار العربية على اقل اشارة الى هذا الدير ولا يخلو ان اسمه كان مذكوراً في بعض المخطوطات السريانية التي احرقها او اضاعها جهلاً بعض الحمقى والمتعصبين كمخطوطات دير صيدنايا وغيرها من القرى الاراميّة .

٥

دير مار تاودورس

في التيرب

ورد ذكره في مجموع من الرقوق وقفنا عليه في خزانة بريتيش موزيوم (Or. 5091, f. 100) في مفتتح « قصة وشهادة روح الشريف القرشي المسمى انطونيوس بالرقة » قيل فيها : « كان في زمان الرشيد ملك العرب رجل من اشراف العرب اسمه روح وكان نازل بدمشق في موضع يقال له التيرب في دير هناك على اسم الشاهد المبارك تاودورس » وقد اشار الى هذه القصة البيروني في كتابه « الآثار الباقية » قال : « ولانطونيوس عند النصارى قصة طويلة عجيبة ما سمعناها ولا قرأناها او مثلها في كتب الاخبار والتواريخ على ان النصارى قوم سناعون مصدقون لمثل ذلك » (ص ٢٩٢).

(١) تحفة الالباب الصفدي ٥٢٣٧ باريس ، ٧٣

(٢) Wright, T. II, p. p. 708-10

ومعلوم ان التيب قرية قديمة كانت تتصل بقاسيون والربوة قد غطتها اليوم البساتين ولم يبقَ منها الا صدى اسمها في المنادلة على الفواكه. وورد ايضاً اسم الدير في حكاية استشهاد القديس بطرس من مدينة بيت راس (Capitolias) كورة بالاردن اشتهرت بجودة خمرها[1]، قيل فيها ان الدير المذكور كان في جبل (Kasia) اي قاسيون، وقد نشر الاب پيترس المستشرق البلجكي والعالم المشهور خبر هذا الاستشهاد نقلاً عن رواية كرجية[2]. ولكنه وهم في ظنه ان دير مار تاودورس هو دير مران وان الاسمين لمسمى واحد عُرف بهما في ازمنة مختلفة. ولا شك انه افتقر بقول كاتب السيرة ان الخليفة الوليد بن عبد الملك امر ان يُقاد اليه القديس بطرس مغلولاً الى دير مران قبل وفاة الوليد فيه بضعة ايام، في النصف من جمادى الآخر سنة ٩٦ للهجرة (٢٦ شباط – فبراير ٧١٥) واذا يراد هنا بدير مران لا منزل الرهبان ولكن المحلة المتصلة به التي غلب عليها اسمه لجواره له، ولدينا عدة شواهد تثبت صريحاً ان الدير كان في بقعة مأهولة تنسب اليه وهي البقعة التي اشار اليها السمعاني بقوله: «دير مران بقعة على باب دمشق نزهة بين الرياض والمياه»[3]. ومما يدل على ان اسم دير مران كان يطلق كذلك على المنازل التي تحيط به ان المؤرخين اجمعوا على ان المقبرة المظلمة في قاسيون كانت في دير مران[4]. فالدير اذن الذي قيد اليه القديس بطرس ومات فيه الوليد هو المحلة المشتهرة باسم دير مران، واذا كان الوليد نازلاً في القصر الذي كان ينزله قبله ابوه عبد الملك بعد انسلاخ الشتاء «اذا مضت ايام من الشتاء»[5].

ومما سبق يتضح ان دير مار تودورس هو غير دير مران وان كلا الاسمين المسميين مختلفان. ولكن يتعذر اليوم تعيين موقع كل منهما وبعده عن الآخر بالضبط لاندراس آثارهما وقلة ما انتهى الينا من اوصافهما.

---

١) معجم البلدان ١ : ٧٧٦

٢) Paul Peeters, *La passion de St. Pierre de Capitolias* in *Analecta Bollandiana*, T. LVII, fasc. 3-4

٣) كتاب الانساب ٥١٤

٤) الحادي عشر من تاريخ نقل من اسم مؤلفه، طبعة غريبزوالد، ص ٢

٦

دير القديسة تقلا

في منين بظاهر دمشق

منين اليوم قرية اسلامية في ضواحي دمشق ، وهي من امهات قرى الغوطة ، عذبة الماء ، كثيرة الاشجار والفواكه والنباتات والرياض . وكانت قبلًا حتى القرن السادس عشر بلدة نصرانية معظم سكانها من الروم الملكيين. اجتاز بها سنة ١٥٠٣ في ذهابه الى دمشق ، قادماً من حلب وحماة ، سائح ارمني ووصفها بقوله : « وعلى مسافة ١٦ ميلًا من دمشق وجدت مدينة اخرى تدعى منين في قمة الجبل وسكانها مسيحيون من ملة الروم وهم رعية حاكم دمشق وفيها كنيستان في غاية الجمال يقال ان القديسة هيلانة بنتها وهي والدة القيصر قسطنطين. وفي منين فواكه حسنة غزيرة واعناب طيبة وبساتين كثيرة زاهية وينابيع ماء . »[1]

وفي شمال البلدة صخور شاهقة ترى في باطنها بعض المغاور المنقورة في الحجر الصلد ، وفي سفحها عدة انقاض وبقايا عُمُد وابراب غُرَف عاديّة ورسوم ابنية دائرة تتبعها المستشرق الفرنسي تومان R. Toumin ووصفها في مقالة له بشرها في مجموع المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٢٩ ، ومثّل فيها اهم آثارها[2] . ورجح ان بعض هذه الابنية سبقت النصرانية ، وانه كان هنالك حصن وثني قبل ان يتحوّل الى معبد مسيحي. ولا شك ان هذه الاطلال الظاهرة هي التي دعاها الشيخ حسن البوريني ديرًا في ابيات وقفنا عليها في ديوان له مخطوط في خزانة دير الشير بلبنان للرهبان الحلبيين جاء فيه ما نصّه :

---

(١) *Les voyages de Ludovico di Varthema ou le Viateur*. Publié et annoté par Ch. Scheffer. Paris. 1888. p. 10-11

(٢) *Mélanges publiés par la Section des Arabisants. — Le culte de Ste Thècle dans le Jebel Qalamun*, p.p. 163-180.

« وقلت وقد مررت على دير قد امحَّ وتهدمت اركانه بقرية منين من نواحي دمشق وذلك في سنة ٩٨٦ (١٥٧٨ م) :

ليت شعري يا دير اين اهاليك واين الذين قد عمروكا
اترام نسوا مغانيك يوماً ام لمرّ الايام قد هجروكا
حكمت فيك حادثات الليالي لو يعيشون ساعة لبكوكا
لم تجد واقياً بنبك الرزايا بعد ما صار للبلى اهلوكا
انت مثلي جفاك كل حليل وتخلفت بعدهم مفرداً
هنتَ مثلي وكنت قبل عزيزاً ضمتَ من بعد اهم حفظوكا
فاحبَّ نازحاً تذكر إلفاً هذا دمع عينه سيفوكا
لا اغبتك هاطلات الغوادي وافاضت بينها تحبوكا »

ولم نعثر على ذكر آخر او إلماع الى هذا الدير في كل ما تيسر لنا مطالعته او التنقيب فيه من المطبوعات والمخطوطات العربية والآثار الرقية والكتابات النصرانية . ولا ندري هل كان هذا الدير احدى الكنيستين اللتين اشار اليهما السائح الفرنجي وهل كان وقتئذٍ فيما عداهما عامراً او خرباً . وعلى كل فقد عدت عليه حادثات الليالي وكوارث الايام ، وتقلص منه ظل النصرانية ومن منين بعد استيلاء الاتراك العثمانيين على الشام ، حين اشتد تحكم ولاة دمشق وعمالهم في ارواح النصارى واموالهم حتى اضطروهم الى الجلاء عن منين او انتحال الاسلام .

٧

دير مارت تقلا

في قرية معلولا

يظهر ان هذا الدير لم يكن معروفاً قديماً . وانما كان هنالك مغارة اشتهرت بنسبتها للقديسة تقلا ، وكان فيها شقّ يقطر منه الماء . فاقبل بعض النصارى على جمعه والاستشفاء به لاعتقادهم انه من آيات شفاعة القديسة تقلا وكراماتها . ثم قام الدير من حولها في بعض السنين . ولذلك دعاه شهاب الدين العمري « دير شق معلولا » قال: «وهو في باطن جبة عال وهو بناء رومي بالحجر

الابيض معلق يسقط به صدع فيه ماء ينقط نحو الذي بصيدنايا ويأخذه النصارى للتبرك معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر وانما الاسم الذي بصيدنايا »[1]

وفي سنة ١٦٩٢ طاف ملاتيوس الزعيم ، مطران حلب ، على الاديار والكنائس في طريقه الى دمشق ، وعرّج على معلولا وزار فيها « كنيسة اول الشهيدات تقلا وجسدها المقدس مخفي بها »[2] واشهر من زار المغارة من بعده من الرحالين في سنة ١١٠٥ / ١٦٩٣ الشيخ عبد الغني النابلسي وسماها بالمرتقلة قال : « وهي كلمة غير عربية وهي مغارة كبيرة في نصف الجبل والماء يقطر من اعلاها الى اسفلها في اماكن متعددة منها ويقولون ان ذلك الماء له خاصية النفع للارياح التي تعرض في بدن الانسان خصوصاً الاطفال ويحكون في ذلك الحكايات الطويلة »[3].

ولم نقف على وصف آخر لهذا الدير في كل ما تناولته يدنا من كتب الرحل والتواريخ الدينية والادبية .

٨

دير مار جرجس

في بلودان من ضواحي دمشق

لا ذكر لهذا الدير في كتب الديارات . وقد اغفل ياقوت تعريف بلودان نفسها بين قرى دمشق ولا شك ان بعدها عن الطريق السابلة وتوقلها في قنة الجبل وصعوبة المسير اليها قديماً كان من اهم العقبات التي حالت بين الدير والزوّار ، ولا سيما انه لم يشتهر بوجود حانة فيه مع كثرة الكروم في القرية . ولذلك اعرض عنه ارباب اللهو والقصف ولم يتغنّ بذكره مجّان الشعراء من من حرّاء الحانات . ولواحد من نوّه به ممن تكلم على الديارات شهاب الدين

١) مسالك الابصار ٢٥٨

٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٥٨

٣) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، رقم ٥٥ من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وخزائن الكتب بدمشق ص ١٢٨

العمري ، وهو دمشقي المولد ، فلم يكن يفوته موقع الدير وإشرافه على جنة الزبداني وقد وصفه بقوله :

« بناؤه قديم بديع الحسن وافر الطلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري بقرية بلوذان وهي محاذية لكفر عامر تطلّ من مشرفها على جنّة الزبداني ببلاد دمشق وبه رهبان نظاف وغلمان من ابناء النصارى ظراف مررت به ونزلت اليه ورأيت به غلاماً يفوق الظبي جيداً ويشبه البدر او أسنى غصن تحيل وطرف كحيل قد قطع الزنار بين خصره وردفه ونفث السحر بين جفنه وطرفه ثم ما كان باعجل ما استتر بدره ولاح ثم خفي فجره فقلت فيه :

هذا الدير من بلوذان دارا ... اي دير به واي نصارى
فيه كل احور الطرف احوى ... فائق الحسن في حياء العذارى
وغلام رأيته كهلال ... ما بدا للعيون حتى توارى
بدوام اذا تقابل نشو ... انّا لحاظ مقلتيه سكارى
ناحل الخصر حلّ عقد اصطباري ... عندما شدّ خصره الزنارا
قبل رؤياه ما رأيت غزالاً ... بات يسقي من رشفيه العقارا (١

وهذا دأب الشعراء في الاسلام لا يخلون من كل ما يمرّ بهم في الديارات التي يطرقونها او يضيفون فيها إلّا بالتغزل بولدانها وحورها ، او باطراء طيب خمورها ، فلا يكاد التاريخ يظفر بشيء يؤثر من اقوالهم فيها

ومعلوم ان العمري توفي سنة ١٣٤٨/٧٤٩ وقد شهد ان الدير كان يُعَدّ في زمانه « قديم البناء » ولكن هيهات ان يعرف متى كان انشاؤه وهو من اديار الروم الملكيين . وقد غابت عنا اخبار روسائه ورهبانه . وغاية ما عثرنا عليه منها ان رئيسه سنة ١٥٩٦ كان الحاج داود دون ذكر أسرته ونسبته . وكان لقب الحاج يطلق على كل من زار بيت المقدس من رجال الدنيا والدين . ومن جملة رهبانه عاشق القس شحاده ، والقس ميخائيل ، والشماس موسى ، ولا يُدرى اي الناس هم . ورد ذكرهم جميعاً في حاشية مرّت بنا في ظهر الورقة ١٥٩ من انجيل سرياني ملكي رقم ٢٠ في خزانة الفاتيكان كتب سنة ١٥٢٧ للاسكندر اي ١٢١٦ للميلاد وهذا نصّ الحاشية بالفاظها :

رقم هذا الانجيل واصلحه الولد الحقير يحنا ابن القس مداج من قرية بطرام من كورة طرابلس المحروسة الاله الرؤوف والرب الرحيم يغفر له خطاياه وخطايا

١) مسالك الابصار ١ : ٣٥٨

القس شحاده واخوه القس ميخائيل وخطايا الشماس موسى الذين اهتموا في عمله شفاعة سيدة ام النور وجميع القديسين آمين آمين .

وكان ذلك في سنة سبعة الف وماية واربعة لكون العالم وعمله في دير مار جرجس بلودان الله يعمره طول الازمان ويغفر خطايا الحاج داود رئيس الرهبان . . . »

وفي خزانة اكسفرد مخطوط ترپودي سرياني ملكي رقم ٨٤ ، كتبت عليه الوقفية الآتية دون تاريخ لها :

« هذا الترپودي المبارك وقف مؤبد وحبس مخلد على دير القديس مار جرجس في قرية بلودان » .

وفي هذين التعليقين شاهد صريح بان لغة دير مار جرجس في بلودان التي كان يصلّى بها الطقس الملكي كانت السريانية كما في صيدنايا وسائر اديار الملكيين في القرى والجبال .

وكان في دير بلودان خزانة مخطوطات قديمة كانت باقية حتى اواخر القرن السابع عشر ، وهو ما يستفاد من قول البطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي:

« حصل لي خبر سمعان المارودي العجائبي في كتاب ومع جدًا من كتب مار جرجس بمحروسة بلودان وكان آخره ناقص »[1]

ونقل مثل ذلك ابنه الشماس بولس في كتابه المخطوط تاريخ انطاكية فقال :

« لما جمع والدي ما كان متوافرًا عديمة بجانب كتاب الدولاب اي اخبار جميع القديسين واكثرهم بخط يدي واوقفهم على القلاية البطرية كان في اين ما سمع في كتاب قديم في اي بلد كان او دير يرسل يستحضره وبعد نساخته يرسله ويشدّه ويرسله لمكانه ومن جملة ذلك جاب كتاب قديم جدًا من دير القديس مار جرجس المشهور بقرية بلودان بقرية مدينة دمشق الشام فيه خبر هذا القديس الشريف (سمعان العجائبي) لا غير الا انه ناقص منه بعض اوراق ومن آخره جانب كثير وباجتهد حتى احييناه واظهرناه للوجود بكل تعب ونصب ولم توجد له في بلاد العربية نسخة ثانية لتكملها » .

ولا يعلم متى بدأ خراب هذا الدير في القرن الثامن عشر وكانت بعض جدرانه وابوابه لا تزال ماثلة في بدء القرن العشرين ، وفيه مذبح متهدم تقام فيه الصلاة احيانًا . ولا يزال قوم في بلودان يتذكرون ابوابه السبعة متتابعة

---

(١) كتاب النحلة رقم ١١٤١ من مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت ص ٨٩

متصلة حتى مدخل الكنيسة وكل منها قائم من ثلاثة احجار ضخمة لا سقف لها وهي قصيرة قليلة الارتفاع سلم منها الباب الاكبر . وترى اليوم في العرصة امام الكنيسة عدة آثار وبقايا عُمُد ومعاصر للدبس والخمر واجران وانقاض شتى ملقاة على الارض . وكان للدير املاك واوقاف جليلة وبساتين تعرف الى اليوم ببساتين الدير استولى عليها اهل بلودان ، وتقاسمتها الاطماع فتجزأت وتفرقت بالبيوع . وقد اشار اليها العمري بقوله « الدير وافر الغلة كثير الكروم والفواكه ».

وفي عهد الجنرال غورو (١٩٢٠) ادعى مسلمو بلودان ان الدير كان معبداً للشمس وحاولوا وضع ايديهم عليه ، ومنعوا النصارى من الصلاة فيه . فامر للحسال بكف اطماعهم عنه وان لا يعترض الروم في صلواتهم فيه . فتبرع المرحوم روفان مرقص الدمشقي بخمس مئة ليرة ذهباً لتجديد بناء الكنيسة واقتدى به بعض مواطنيه واعانهم قوم من المهاجرين في اميركة فبلغ المجموع ١١٩٧ جنيهاً انكليزياً ، وبوشر بالعمارة سنة ١٩٢٣ وانتهي منها سنة ١٩٢٤ وهذا نص الكتابة المنقوشة في لوح على يسار مدخل الكنيسة :

« تجدد بناء هذه الكنيسة المقدسة للقديس جاورجيوس للروم الارثوذكس سنة ١٩٢٤ باحسان الخيور روفان يوسف مرقص الدمشقي ومحسنين آخرين مفيدة اسماؤهم في اللوحة الثانية شفيعة هذه اللوحة والقائمة بجانبها وجهة واشراف اللجنة المؤلفة من حضرات نعمان بك ابو شعر رئيساً وعضوية الافندية سرحان شحفة وخليل الخوري وجورج لاذقاني سنة ١٩٢٤ ».

وللكنيسة صحن واحد . وامام الهيكل حاجز من الخشب ولما زرناها في ٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٦ كانت ابوابها مقفلة للخلاف الذي كان قائماً بين الخوري سيريدون بيطار واهل بلودان رعيته [1] .

---

١) الخزانة الشرقية ٣ : ١٤٢ - ١٤٥

٩

دير الحكيم

في جوار مُقرى شرقي الصالحية

وقفنا على ذكره في قصيدة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى قاضي العسكر المعروف بابن الفراش الدمشقي قال فيها :

اذا ما طفتَ حول ديار مُقرى فعرّج بي الى دير الحكيم
وحيّ البربعين وكم سمى لي على الشرفين من شجن قديم (١)

ومُقرى قرية كانت شرقي الصالحية من اشهر متنزهات دمشق . ثم خربت وبني في مكانها مساكن واصبحت حارة من حارات الصالحية كما كتب ابن عبد الهادي . ويظهر ان دير الحكيم كان في جوارهـا . وقد زالت آثارهم وآثاره ، ولم يبقَ لنا الا اسمها وتذكاره . ويترجح انه كان منسوباً لاحد اطباء النصارى ، ولعله ترهب وانقطع فيه للزهد والعبادة فاشتهر بالنسبة اليه .

١٠

دير الحنابلة او المقادسة

في الصالحية

لا ندري ما كان اسمه النصراني قبل استيلاء الحنابلة عليه ونسبته اليهم . وقد خفي علينا ايضاً موضعه القديم لخرابه وعفائه ، فلا سبيل الى الاهتداء اليه . وغاية مـا نعلمه انه كان في الناحية الشرقية من الجبل . واوحد من اشار اليه ابن عبد الهادي المعروف بابن المِبْرَد من علماء دمشق في بدء القرن العاشر للهجرة توفي سنة ٩٠٩/١٥٠٣ ، بعد ان كتب ما يـأتي في تاريخ له للصالحية لخصه محمد بن كنان ومسودته محفوظة في خزانة برلين بعنوان « المروج

(١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٢ باريس .

السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية » رقم 1117 ms. or. Wetzel 11 n° 1117 قال الشيخ ابو عمر شيخ المقادسة والحنابلة بتاريخ ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م :

« ما سكنا الدير كان في الجبل الشيخ سمار وحمدان وسيدهم يعني في الدير الغربي – وابو العباس الكهفي . . . ولم يكن في الجبل الا ثلاثة بيعة من الناحية الغربية دير ابي العباس الكهفي ودار بيت الغزال . . . والكهفي ودير الحوراني وكان من الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابلة وكان فيه جماعة منهم عبد الرحمن المقابري وابو الملا وناس قليلون وكان اولا الناس من الرهبان فاتفق انهم احدثوا شيئا فأخرجوا منه فسكنه ابن مستفاد واولاده واقاربهم طلبه لهم سابقا الامام عبد الوهاب بن الشيخ ابي الفرج الشيرازي الحنبلي وكانوا من اصحابه وكان الشيخ واعظا عظيما في البلد » (f°. 2v°)

وقال بعد ذلك :

« دير الرهبان وتقدم ذكره سكنه جماعة ابن الحنبلي ثم صار يعرف بدير الحنابلة » (f°. 3v°)

واشار ابن شداد قبله الى مساجد الجبل فقال :

« مسجد مغارة الدم مسجد آخر فوق مغارة الدم مسجد مسجد الدير الذي كان لرهبان النصارى فجعل مسجدا خرب »[1]

فهل كان هذا المسجد الخرب هو مسجد دير الحنابلة المتقدم الذكر ، ام هو دير آخر تهدم مسجده قبل القرن السابع للهجرة ؟ وكان لا شك في سفح جبل قاسيون ، في ايام الروم ، غير دير واحد لما امتاز به الجبل من النزاهة وحسن المطل على رياض الغوطة . ويتضح من رواية ابن المبرد انه كان من الديارات القديمة في قاسيون ثلاثة اديار عرف الغربي منها باسم دير ابي العباس الكهفي ، والشرقي بدير الحنابلة ، والمشهور الثالث بدير الحوراني ، وكان فيما يظهر في الناحية الغربية من الجبل[2] . فأي هذه الاديار الثلاثة كان دير سمعان الذي خرب قبل القرن السادس للهجرة وتنوسي اسمه لغلبة الوهم الشائع انه في جوار حمص او معرة النعمان وانه مدفن الخليفة عمر بن عبد العزيز ؟ وما كان

١) الاعلاق الخطيرة، خزانة بريتيش موزيوم Add. 23385, f° 56

٢) في ذيل الروضتين لابي شامة في كلامه على ابي عمر شيخ الصالحية والمقادسة « قبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني عن يمين المار الى المغارة » (ص٧٥) .

قبل الاسلام اسم كل من الديرين الآخرين ؟ وسيبقى سر هذه الاديار الثلاثة مكتوماً في صدر الغيب الى ان يُفتح علينا ببعض خبايا الخزائن الخاصة المضنون بها على العلم .

وكان يقال احياناً لدير الحنابلة « دير المقادسة »[1] وهم قوم حنابلة من قرية جماعيل من نابلس المقدس ، هاجروا في ايام الصليبيين الى دمشق ونزلوا في مسجد ابي صالح خارج الباب الشرقي مدة ثلث سنوات وعرفوا باسم «الصالحية» نسبة الى المسجد ، ثم خرجوا الى جبل قاسيون وتديّروه وعرف بهم فكان يقال جبل الصالحية اشارة اليهم ولم يكن مشتهراً قبل الا باسم قاسيون .

وقد عثرنا على اسم « دير المقادسة » في مجموع عربي رقم ٩٨٢ ، في خزانة باريس ، عُدّ غلطاً في المخطوطات التركية . وهو احاديث شتى وفيه « الجزء السادس من الموافقات في مشايخ مشايخ ابي دواد والترمذي وابن ماجه والنسائي جمع محمد بن عبد الواحد بن احمد المقدسي » وتحت عنوان هذا الكتاب في آخر سماع لكاتبه : « صحّ ذلك في يوم الجمعة ثاني رجب الفردسنة سبع وثلاثين وثمان مائة بثنيّات دير المقادسة من قاسيون» (١٤٣٤م).

وربما قيل احياناً لهذا الدير « الدير المبارك » ومنه في ترجمة ابي عبدالله السعدي المقدسي الدمشقي الصالحي « ولد بالدير المبارك في سنة تسع وستين وخمسمائة »[2] .

---

١) الدروح السندسية لابن كنان ، طبعة مديرية الآثار القديمة ، ٨١.

٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي ، نسخة الجامعة العبرية بالقدس ، ٧ : ٣٠٤

١١

دير حَنَنْيا

بظاهر دمشق

في التقاليد المسيحية ان حنانيا الرسول هو اول اساقفة دمشق . فلا غرو اذا انتسب اليه احد الاديار في ضواحيها ، وقد تصرفوا في لفظ اسمه فقالوا حَنَنْيا بفتح الحاء والنون واسكان الياء ، وورد بهذا الضبط في الشعر ، ولا تزال الى اليوم تعرف به احدى حارات الباب الشرقي من ابواب المدينة حيث كان منزله . وربما الحقوا في الشعر المدّ بآخره فجعلوه حنينا . وعليه قول الكميت يرثي معاوية بن هشام بن عبد الملك وقد مات عنده :

فأيّ فتى دنيا ودين تلمَّست بدير حنينا المنايا فدلَّتِ
تعلَّلت الدنيا به بعد موته وكانت لنا حيناً به قد تعلَّتِ (١)

وروى البكري فيما قيل ان الذي رُثي بهذا الشعر هو البطّال احد فرسان العرب المشهور بغزوات الروم في ايام الامويين مات بدير حنينا قافلاً مع معاوية بن هشام من غزوة ، فامر معاوية الشعراء برثائه . والصحيح ما اثبتناه . ومما يدل عليه ان قبر معاوية بن هشام كان ملجأ معروفاً في الدولة المروانية يستجير به الخائف فيؤمَّن لمحله من بيت الخلافة . ولما نظم الكميث قصائده الهاشميات وهجا بني امية امر الخليفة هشام بن عبد الملك ان يُقطع لسانه ويده فأُخذ وحُبس ثم افلت من السجن متنكرًا بثياب امرأته وقدم دمشق ، واستجار بعنبسة بن سعيد بن العاص ، فامره ان يعوذ بقبر معاوية بن هشام بدير حنينا وشفع فيه بعض رجالات امية فنجا من القتل (٢) .

وقد اهمل ياقوت والبكري والعمري ذكر هذا الدير في جملة الديارات . واشار ياقوت الى موضعه في حرف الحاء واقتصر على القول انه من اعمال

---

١) معجم ما استعجم للبكري ٢٧٣ - ٢٧٤

٢) الاغاني ١٥ : ١١٥

دمشق[1]. ولا شك ان الناحية كلها كانت معروفة باسمه . ولذلك قيل ان معاوية ابن هشام قُبر فيه ، وولده عبد الرحمن هو الامير المعروف بالداخل منشىء الدولة الاموية في الاندلس ، ولد في ناحية الدير سنة ١١٣ للهجرة[2] (٧٣١ م) .

ولا سبيل اليوم الى الاهتداء لمكان هذا الدير وموقع ناحيته . وكان لا يزال معروفاً مقصوداً بالزيارة في اوائل القرن السابع ، في ايام الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم الايوبي . وقد وُفّقنا للعثور على قصيدة من شعر عون الدين بن المحسني الحلبي الكاتب (٦٠٦ – ٦٥٦ هـ ١٢٠٩ – ١٢٥٨ م) في مدح الملك الناصر ذكر فيها ثلاثة من اديار الشام ومنها دير حنينا ننقل منها ما يأتي وعاليه في وصف خمرة الدير :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً ... مسامر لم يكن في سيره وانى
ان حزت بالشام شم تلك العرصى ولا ... تعدل – ان فت المى – عن دير مران . . .
واعبر بدير حنينا وانظر ورص اناسدات مـا ... بين قسيس ومعران
واستجلِ راحاتها تجي النفوس اذا ... دارت براح شماميس ورهبان
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت ... بشُهبها من هوى كل شيطان
كم رحتُ في الليل أسقيها واشربها ... حتى انقضى وفديي غير ندمان
سألت توماس عمن كان عاصرها ... اجاب رمزاً ولم يسمح ببيان
وقال اخبرني شمعون بنقله ... عن ابن مريم عن موسى بن عمران
باخا سفرت بالطور مشرقة ... انوارها فكشفوا عنها خبران
وهي المدام التي كانت ممثلة ... من عهد هرمس من قبل ابن ركنان
وهي التي عيدها فارس فكنى ... عنها بشمس الضحى في قوله ماني
سكرت منها فلا صحو وجدت بها ... على الندامى وليس الشح من شاني
وسوف امنحها اهلا وانشده ... ما قيل فيها بترجيع والحان
حتى قيل لها اعطافه طرباً ... وينثني الكون من اوصاف نشوان
خير الملوك صلاح الدين ليس له ... في الجود ثانٍ ولا عن جوده ثاني [3]

ولعل توماس هذا الذي ذكره كان وقتئذٍ رأس دير حنينا ، ام باطري متولي بيع الخمر فيه . وقد اطلنا البحث عن شاهد آخر يشير الى هذا الدير فذهبت اتعابنا ادراج الرياح .

١) معجم البلدان ٣ : ٥٥٠
٢) المقفى للمقريزي ، خزانة باريس ٢١٣١ ، ص ٥٣
٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦